من ذكريات لبناله

بعـــد نهار جميل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« والآن ما ذا ينبغى أن نأخذ معنا ؟ — حاذروا أن تنسوا شيئاً »

فقالت زوجتى : « لا تنسوا الـكميرا . . فسنحتاج إليها ولا شك »

وقالت فكتورين — جارتنا — : « الأفلام . . ما فائدة الـكميرا بلا أفلام ؟ »

قلت : « صدقت .. وماذا أيضاً ؟ »

فقالت زوجتى : « والصابون ! »

وقالت فـكتورين : « ورق اللعب .. أليس كذلك ؟ »

فقلت . « والأطباق والملاعق والفوط والسكاكين !! . إن من يسمعكما يخيل إليه أننا ذاهبون الى بعض مجاهل الدنيا »

فقالت زوجتى : « الحق أقول لـكم إنى أخشى علينا . . . إن هذه الجبال لا عهد لنا بها وسنعود بالليل .. وقد كنت أفضل أن يقود السيارة رجل يعرف الطرق .. رجل من أهل البلاد »

قلت : « الحق معك .. فانى أخشى الثلج على الجبال »

فصاحت زوجتى : « ثلج ؟ ؟ هل قلت الثلج ؟ »

قلت : « نعم . . جبال من الجليد . . وسنحتاج أن نربط السيارتين معاً بحبل واحد . . فاذا سقطت إحداها فى الهاوية جرت الأخرى معها ... ألا تـكفون عن التخريف ؟ »

فـكفوا .. وقمنا الى مضاجعنا استعداداً للسير فى بكرة الصباح

* * *

وكنا ثمانية فى سيارتين : زوجتى وأولادى وأنا فى سيارتنا ، وجيراننا فى سيارتهم . فانطلقنا منحدرين فى الطريق الى بيروت وهو طريق وعر كثير التعرج والتلوى ، ولـكنه أملس كبطن الـكف . غير أنه مخيف — يقوم الجبل على جانب منه ، والوادى تحته من الجانب الآخر . ولا ترى منه وأنت تقطعه إلا القليل لأن تلويه حول الجبل وانثناءه كالحبل أو كالحية يخفيانه . وكان الضباب فى أول الأمر يمنعنا أن نسرع ، ولـكن الشمس بددته فانـكشفت الدنيـا لعيوننا فنعمنا بجمال الوادى الأخضر ، وجلال الجبـل الشامخ ، وقد قام الشجر المثمر على سفحه بين كتل الصخور ، واختلطت فيه بهجة النور وزهرته بنضارة الخضرة . وليس أوقع فى النفس من السير فى طريق تشرف عليه الجبـال وتغيب قننها فى السحاب فـكأنها عروش للطبيعة !!!

وظللنا ننحدر وندور حول جبل بعـد جبل ، ونمرق من القرى والضياع واحدة بعد واحدة ، وما هو إلا أن تلف مع الطريق حتى تختفى فجأة ، ثم إذا هى بعد لفـة أخرى تبدو لنا منازلها منتثرة و بعضها فوق بعض ؛ ثم ندور مرة أخرى فتحتجب ونحن لا نكف عن الانحدار ولا نزال نهبط حتى استوى الطريق واستقام ، فعلمنا أننا دنونا من بيروت . ولم تـكن هى غايتنا فلنا عن طريقها وأخذنا فى طريق « عالية » ثم شعرت أن السيارة سهدت جداً حتى صارت سخونتها لا تطاق ؛ فعجبت ، وخففت ووقفت ، فسألتنى زوجتى عن الخبر ، فقلت : إن السيارة سخنة

مرتبطاً بالـكمال الانسانى للجنس ؛ وهذا معنى عجيب ، وأعجب منه ما ترى من أن الاسلام قد أصلح فـكرة المـاضى فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس إلى المعانى التى هى كالآباء والأجداد لانسانية الناس . والأخذ (بالأهدى) فى اجتماع أمة من الأمم إنما هو بعينه ناموس الترقى والتطور

ومن أدق الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة » . فـكلمة (أمّة) هنا لم يعرفها أحد على حقيقتها ، ولم تفسرها إلا علوم هـذا الزمن ، فهى المشاعر النفسية التى يتكون منها مزاج الشعب وفيها يستقر المـاضى ؛ كأن الآية قد عبّرت بآخر ما انتهى اليه علماء النفس من أن الانسان ابن أبويه وابن شـعبه أيضاً . فالتعصب فى الاسلام هو للعلم النافع وللمجد الصحيح وللهداية الباعثة على الـكمال ؛ وتعصب الجيل لمثل هذا فى ماضيه هو فى اسمه تعصب ، غير أنه فى معناه إنما هو العمل لتسليم مجد الأمة إلى الجيل التالى لها

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

جداً ، ولا أعرف لهذا من سبب إلا أن تكون أنابيب الماء قد ثقبت ؛ فهو يسيل منها ولا يبقى فيها . وكنا لحسن الحظ فى مدخل إحدى القرى فلم نجد عناء فى الحصول على ماء صبيناه فيها ، وملأنا زجاجتين استعرناهما من بعض القوم . وبعد ذلك صرنا نضطر أن نقف من حين الى حين لنصب الماء فى السيارة ولم يكن ما حملنا منه كافياً ، فكنا كلما بلغنا قرية نأخذ منها حاجتنا ونحتفظ بما فى الزجاجتين للطريق بين القرى حتى بلغنا « الشاغور » وكان جيراننا قد سبقونا إليه

* * *

وقفت بالسيارة وراء زميلتها وفتحت بابها فشدت زوجتى ذراعى وصاحت بى : « انظر ... انظر ... »

فنظرت إلى حيث تشير ، فرأيت صبياً غريب الثياب . يلبس سروالاً — أو شروالاً كما يسمونه أحياناً فى مصر — وقد لف على خصره — إذا جاز أن يسمى هذا خصراً — حزاماً أحمر غليظاً ، ومن فوق ذلك — أو من تحته إذا شئت — صدرية من الحرير المخطط تجمع طرفيها سلسلة من الأزرار تنتهى عند العنق . وعلى رأسه لفة كبيرة . وفى كلتا يديه تفاحة عظيمة يهوى عليها بأسنانه

وقالت زوجتى : « أين الكبيرا ؟ دعه يقف حتى أصوره ! »

فدنوت من الصبى وأنا أقول لنفسى : « أصيب عصفورين بحجر » أستوقفه حتى ترسمه زوجتى ، وأكل إليه حراسة السيارة . ولكن الغلام رآنى مقبلاً عليه ، فجعل يتراجع ، وعينه علىّ ، وأسنانه تعمل فى التفاحة ، ولم يكن ثم شك فى أن الصبى الأحمق يخشى أن أخطف التفاحة منه ، فهو لهذا يدبر كلما أقبلت ، وكنت أطمئنه وأؤكد له أنى لا أريد به سوءاً وأن فى وسعه أن يأكل تفاحته على مهل ، ولكن هذا كان يزيده خوفاً ، فقد أسرع فى القضم وصار فيما أرى يزدرد ولا يمضغ . ولا أدرى لماذا ألححت فى دعوته أن يقف ويتمهل فقد كان هناك غيره ولم يكن ثم ما يدعو إلى الخوف على السيارة ، ولكن الذى أدريه أنه فرغ من التفاحة ورمى وجهى بما بقى منها فأصاب أنفى

ولما أفقت ، التفت إلى زوجتى ، وقلت :

« هذه جنايتك ... وقد كان أنفك أولى ، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » فضحكت

وكان جيراننا قد خفوا إلى « مكان الحادثة » وعرفوا ما كان فانطلقوا يقهقهون معها . وقالت زوجتى :

« لقد استطعت أن ألقط صورتك حين وقعت التفاحة على أنفك »

قلت : « ستكون الصورة ذكرى جميلة ... أليس كذلك ؟ وهذا جزاء الأحمق الذى يتزوج ... يجىء بامرأة فيطعمها ، ويكسوها ، ويبرها ويسرها ويعانى من أجلها وفى سبيلها المتاعب والمنغصات ، وتضحك منه حين ينبغى أن تعطف عليه وتألم له »

فلم تعبأ بى ، ومضت عنى مع الجيران ، وهى تضحك

* * *

ونعمنا بيوم جميل فى الشاغور ، ولم يكن أقل ما سرنا نومنا على العشب ، والماء إلى جانبنا يخرج من بين الصخور دافقا راغيا يتحدر من صخرة إلى صخرة كالشلال . وانقضى النهار ، وآن أن نعود من حيث جئنا . وكانت السيارة قد أصلحت فى خلال ذلك ، فركبنا وانطلقنا راجعين

وقلت لزوجتى وقد بلغنا البيت « هاتى المفتاح ! »

قالت : « أى مفتاح ؟ إنه معك ... لقد كنت أنت الذى أغلقت الباب ، وأظنك وضعت المفتاح فى جيب البنطلون »

وكان مفتاحا كبيراً عتيقاً لا يعقل إلا أشعر به إذا كان فى جيبى ، ومع ذلك بحثت ، وأخرجت الجيوب ونفضتها أمامها ، وأوسعت السيارة بحثاً عسى أن يكون قد سقط منى فيها ، فلم أجد له أثراً . فقلت وقد تعبت « أسوأ ختام لخير نهار ... لا بأس ... والآن لم يبق إلا أن نجىء بخيمة نقيمها هنا ، أو أن يضيفنا الجيران وإن كان بيتهم لا يكاد يسعهم ، أو أن ندخل البيت من النافذة ... ولم لا ؟ صحيح أنها مغلقة ... ولكن ما قيمة هذا ؟ ؟ نقلق خشبها بالفأس ، ونحطم زجاجها .... وكل ما ينقصنا لنيسر ذلك .... سلم طوله ستة أمتار على الأقل ... وفأس ... الأمر سهل جداً كما ترين ... أم خير من ذلك أن أحملك على أسنانى وأنفخك إلى النافذة ، فانك خفيفة كغلالة الورد .... ولكنى أخشى أن تطيرى إلى بيت آخر ! »

فقرصتنى قرصا وجيعا ولم أكن أتوقع ذلك فصرخت من الألم